

**تساءلت فى نفسى مؤخراً؛
لماذا يرشق الأولاد قطارات
السكك الحديدية بالحجارة؟
.. هو سؤال مهم فى الحقيقة.
تتعدد الأسباب وتتنوع ..
وأحاول فى هذه المقالة أن
ألقى الضوء على بعضها
من خلال استعراض سريع
ومختصر لنظرية التعلم
الاجتماعى وكيف تعمل؛**

نظرية التعلم الاجتماعى وكيف تعمل

طه عبدالباقى الطوخى

كاتب ومترجم من مصر

أولاً: فكرة أن الناس يمكن أن يتعلموا من خلال الملاحظة/ المراقبة أو الرصد. وثانياً: فكرة أن الحالة النفسية الداخلية للشخص هي مكوّن جوهري لهذه العملية. وأخيراً: أن هذه النظرية تعترف بأن مجرد تعلم شيء لا يعنى أن يكون نتيجة ذلك تغيراً فى السلوك.

ويقرر الأستاذ/ باندورا فى كتابه «نظرية التعلم الاجتماعى Social Learning Theory» - 1977: «أن التعلم سيكون شاقاً ومرهقاً جداً وإلى حد بعيد، وأنه حتى قد ينطوى على مخاطر إذا كان على الناس الاعتماد فقط على تأثيرات أفعالهم الخاصة التى تجربهم ماذا يفعلون»، وهو يضيف: «لحسن الحظ فإن معظم سلوكيات البشر يتم تعلمها من خلال ملاحظة/ مراقبة النموذج، فمن خلال مراقبة الآخرين يكون الشخص فكرة عن كيفية القيام بسلوك جديد، وفى مناسبات لاحقة، تستخدم هذه المعلومات المشفرة فى الذاكرة كمرشد أو دليل للعمل».

ولمزيد من التعمق لاستكشاف هذه المفاهيم، يلاحظ الأتى:

(1) يمكن أن يتعلم الناس من خلال المراقبة/ الرصد:

فى إحدى أشهر التجارب فى تاريخ علم النفس، شرح الأستاذ/ باندورا أن الأطفال يتعلمون ويقلدون السلوكيات التى يلاحظونها فى الناس. وقد انضح خلال دراساته وتجاربه أن الأطفال شاهدوا أفعال عنف من البالغين ضد عروسية لعبة Bobo Doll. وعندما سمح للأطفال لاحقاً باللعب فى الغرفة مع العروسية (الدمية)، فقد بدأوا فى تقليد الأفعال الهجومية التى شاهدوها سابقاً.

التقليدية، فهو يؤمن بأن التعزيز المباشر لتلك المفاهيم الأساسية لا يمكن تفسيره لكل أنواع التعلم.

وكمثال: كثيراً ما يظهر الأطفال، والبالغون أيضاً، تعلمهم للأشياء التى لا يختبرونها مباشرة. فحتى إذا لم تكن أبداً قد لعبت التنس فى حياتك، فقد يعرف أحدهم ماذا يفعل إذا أعطاه آخر المضرب وطلب منه محاولة ضرب الكرة. ويحدث هذا لأنه قد شاهد آخرين يلعبون التنس سواء كانت هذه المشاهدة فعلياً فى الملعب أو على التلفزيون أو الفيديو.

ومع أن نظريات سلوكيات التعلم تشير إلى أن كل عمليات التعلم كانت نتيجة الارتباط بين التكيف والتعزيز والعقاب، فإن نظرية التعلم الاجتماعى للأستاذ/ باندورا تتضمن أن التعليم يمكن أيضاً أن يحدث ببساطة من خلال ملاحظة ومراقبة سلوكيات وتصرفات الآخرين.

وقد أضافت نظريته عاملاً اجتماعياً مهماً يوضح أن الناس يمكن أن يتعلموا معلومات وسلوكيات جديدة بمراقبتهم لآخرين. وقد عرف ذلك العامل الاجتماعى بالتعلم الرصدى أو التعلم بالمراقبة. وهذا النوع من التعلم يمكن أن يُستخدم لشرح تشكيلة واسعة من السلوكيات تشمل تلك التى لا يمكن تفسيرها من خلال نظريات التعلم الأخرى.

يتم التعلم بالمراقبة من خلال تقليد سلوك الآخرين: يوضح الأستاذ/ باندورا أن عملية التعلم تتم من خلال مراقبة الآخرين، وحفظ المعلومات، ثم تكرار السلوك الذى تم حفظه بعد ذلك .. ويحدث قدر كبير جداً من التعلم من خلال عملية مراقبة وتقليد الآخرين. وتعرف هذه الطريقة فى علم النفس بالتعلم بالمراقبة أو التعلم الرصدى كما سبق ذكره.

أشياء يجب أن نعرفها عن نظرية التعلم الاجتماعى: توجد ثلاثة مفاهيم أساسية تقع فى القلب من نظرية التعلم الاجتماعى:

إن عملية التعلم هي عملية مركبة بشكل كبير وجزير بالاعتبار والدراسة. وهي تتأثر على نحو فعال بتشكيلة واسعة من العوامل. وكما يعي كثير من المعلمين والتربويين، والأمهات والآباء الواعين أيضاً، فإن الملاحظة والمراقبة يمكن أن تلعب دوراً حاسماً فى تحديد: ماذا وكيف يتعلم الأطفال. وكما يقول المثل «إن الطفل يشبه قطعة الإسفنج، يمتص الخبرات التى يمر بها كل يوم كما يمتص الإسفنج الماء» .. انظر إلى خطوات الطفل وقارن بينها وبين خطوات أبيه تجدها تتشابه إلى حد كبير.

ولأن عملية التعلم هي على قدر كبير من التقيد، تعددت النظريات النفسية التى تتناول كيف ولماذا يتعلم الناس. وقد وضع عالم النفس الأمريكى (من أصل كندى)، الأستاذ/ ألبرت باندورا، الباحث والمدرّس بجامعة ستانفورد، الذى خدم كرئيس للجمعية الأمريكية لعلم النفس 1974، ضمن أعماله المتعددة: «نظرية التعلم الاجتماعى Social Learning Theory»، التى يوضح فيها أن المراقبة والنمذجة تلعب دوراً أساسياً فى عملية التعلم.

وتذهب نظرية الأستاذ/ باندورا إلى أبعد من/ وتتخطى النظريات السلوكية التى تتضمن أن كل السلوكيات يتم تعلمها من خلال التكيف والتدريب، وكذلك النظريات المعرفية التى تأخذ فى اعتبارها تأثيرات كل من الانتباه والذاكرة.

المبادئ الأساسية لنظرية التعلم الاجتماعى: كيف تعمل نظرية التعلم الاجتماعى؟ خلال النصف الأول من القرن العشرين، تسيّد المجال «المدرسة السلوكية»، وأصبحت قوة مهيمنة فى علم النفس. وقد أشار علماء السلوك (السلوكيون) إلى أن كل التعلم هو نتيجة للخبرات المباشرة التى يمر بها البشر فى بيئاتهم من خلال عمليات الترابط والتعزيز/ التقوية بينها. ومع أن نظرية الأستاذ/ باندورا هي متجذرة أيضاً فى كثير من المفاهيم الأساسية لنظرية التعلم

أيضاً مهمة جداً بل إنها حيوية في عملية التعلم بالمراقبة.

الاستنساخ: ما إن تنتبه للنموذج وتحفظ المعلومة، حتى يأتي الوقت للقيام بالفعل (التصرف/ السلوك) الذي راقبته. وكلما كررت ممارسة ما تعلمته من سلوكيات/ تصرفات تحسّن أدائك لها.

الحافز: وأخيراً، يأتي الحافز. فحتى تتجح عملية التعلم بالمراقبة، يلزمنا وجود حافز لدينا على تقليد الفعل الذي رأيناه في النموذج. ويلعب كل من التعزيز والعقاب دوراً مهماً في التحفيز. وكما يمكن للتحفيز أن يكون فعالاً جداً، كذلك يمكن لمراقبة مرور آخرين بنوع من التعزيز أو العقاب أن يكون مؤثراً جداً أيضاً. فمثلاً: إذا رأيت تلميذاً آخر قد تم مكافأته عند حضوره للدرس في الميعاد، فربما تبدأ في إظهار اهتمامك وتحضر للدرس يومياً قبل دقائق من الموعد المحدد.

بعض تطبيقات نظرية التعلم بالمراقبة: يمكن لنظرية التعلم بالمراقبة أن يكون لها بعض التطبيقات في الحياة الواقعية. فمثلاً، يمكن استخدامها في مساعدة الباحثين على فهم كيف ينتشر العدوان والعنف بين الناس من خلال التعلم بالمراقبة. وبدراسة ما نراه على وسائل الإعلام والتواصل يمكن للباحثين والمعلمين والمربين، وللإعلاميين أيضاً طبعاً أن يصلوا لفهم أفضل للعوامل التي يمكن أن تقود الأطفال للتصرفات العدوانية التي يرونها على التلفزيون وفي الأفلام. وقد تشكل كلمات هذه الفقرة جزءاً من الإجابة على التساؤل الذي بدأت به هذه المقالة.

● لكن التعلم الاجتماعي يمكن استخدامه أيضاً لتعليم الناس السلوكيات الإيجابية. حيث يمكن للباحثين أن يستخدموا نظرية التعلم الاجتماعي في فحص وفهم الطرق التي يمكن بها للنماذج الإيجابية أن تستخدم في التشجيع على السلوكيات المرغوبة لدعم وتسهيل عمليات التغيير الاجتماعي إلى الأفضل.

● بالإضافة إلى قيامها بالتأثير على علماء النفس الآخرين، كانت لنظرية التعلم الاجتماعي للأستاذ/ باندورا انعكاسات هامة على حقل التعليم. ويتحقق اليوم كل من المعلمين والآباء والأمهات، والإعلاميين أيضاً بالطبع تحقيقاً للنفع العام، من مدى أهمية وجود وعرض السلوكيات المثالية الملائمة. وتتضمن نظرية التعلم الاجتماعي أيضاً استراتيجيات أخرى في الفصول التعليمية لتشجيع التلاميذ على بناء وتعزيز الفعالية الذاتية.

وكما لاحظ الأستاذ/ باندورا، يمكن للحياة أن تصبح علينا جداً بل يمكن أن تهددنا أخطار كبيرة وكثيرة جراء تعلم وتقليد كل ما نعرفه أو ما يجرى أمامنا من أفعال. إن كل ما يجرى في الحياة هو متجذر بصورة ما في التجارب والخبرات الاجتماعية، لذا، فإن مراقبة الآخرين تلعب دوراً حيوياً في كيفية اكتسابنا لمعارف ومهارات جديدة. ومن خلال الفهم الأفضل لنظرية التعلم الاجتماعي، يمكن للواحد أن يقدر كثيراً قوة ما تلعبه المراقبة في تشكيل ما نعرفه من أشياء وما نفعه من تصرفات أو نتبعه من سلوكيات. والله أعلم.



ألبرت باندورا

«نظرية المعرفة الاجتماعية».

لا يؤدي التعلم دائماً لتغيير السلوك:

كيف نحدد ما إذا كنا تعلمنا شيئاً ما؟ في حالات كثيرة، يمكن رؤية التعلم فوراً عندما يتم عرض تصرف ما جديد. فعندما تعلم طفلك ركوب الدراجة مثلاً، يمكنك أن تلاحظ سريعاً ما إذا كان قد تعلم الركوب دون مساعدة.

لكن، يحدث أحياناً أن نكون قادرين على تعلم أشياء حتى مع أن تعلمها قد لا يمكن ملاحظته فوراً. وبينما يعتقد السلوكيون أن التعلم يؤدي إلى تغير دائم في السلوك، فإن التعلم بالمراقبة يوضح أن الناس يمكن يتعلموا معلومات جديدة دون إظهار سلوكيات جديدة.

كيف يحدث التعلم بالمراقبة؟

من المهم أيضاً أن نعرف أن ليس كل التصرفات التي يتم مراقبتها يتم التعلم منها بكفاءة. لماذا؟ إن العوامل المتضمنة في كل من النموذج والمتعلم يمكن أن تلعب دوراً في مدى نجاح عملية التعلم. ذلك أنه يلزم الوفاء بمتطلبات واتباع خطوات محددة. ومن هذه الخطوات اللازمة لعملية التعلم بالمراقبة والنموذج:

الانتباه والتركيز: حتى تتعلم يلزمك أن تنتبه. وأي شيء يشد انتباهك سيكون له تأثير سلبي على التعلم بالمراقبة. وإذا كان النموذج مثيراً للاهتمام أو كان هناك جانب مختلف أو جديد في الموقف، فمن المحتمل جداً أن تركز انتباهاً أكبر على عملية التعلم.

الحفظ: إن القدرة على حفظ المعلومات جزء مهم جداً من عملية التعلم. ويمكن لحفظ ما تعلمناه أن يتأثر بعدد من العوامل، لكن قدرتنا على استدعاء المعلومات لاحقاً والعمل بها هي

وقد حدّد الأستاذ/ باندورا نماذج ثلاثة أساسية للتعلم بالمراقبة:

● نموذج جي: تضمّن استعراض تصرف فعلي حدث بالفعل أو القيام بفعل/ سلوك معين.

● نموذج تعليمي شفهي: تضمّن وصفات وتوضيحات لسلوك معين.

● نموذج رمزي: تضمّن شخصيات حقيقية أو خيالية تستعرض سلوكيات معينة في كتب أو أفلام أو برامج تليفزيونية أو على الإنترنت (على الهواء مباشرة On line).

كان لتجربة «بوبودول» الشهيرة أثر كبير في تفسير عملية التعلم بالتقليد في مرحلة الطفولة

وكما نرى عزيزي القارئ، لا يتطلب التعلم بالمراقبة بالضرورة مراقبة شخص آخر للاشتراك فيما يقوم به. ذلك أن مجرد سماع تعليمات شفوية، مثل الإنصات لتدوين صوتية أو مشاهدة فيديو، يمكن أن يؤدي إلى التعلم. كما أننا نستطيع أيضاً أن نتعلم من خلال القراءة، والاستماع لـ أو مراقبة أفعال شخصيات نراها في كتب أو أفلام.

وكما يمكن لأي منا أن يتخيل أن هذا النوع من التعلم بالمراقبة قد أضحى كمانعة صواعق لجدال الآباء مع علماء النفس ومناقشاتهم عن التأثيرات التي يتعرض لها الأطفال. فكثيرون ينتابهم القلق من أن الأطفال يمكن أن يتعلموا سلوكيات العنف من خلال مشاهداتهم للفيديوهات والألعاب الإلكترونية والأفلام وبرامج التلفزيون والإنترنت، إلخ.

(٢) الحالة النفسية عامل مهم في التعلم:

إن مجرد ملاحظة أفعال شخص ما لا تكفي دائماً للتعلم منه. فحالتك النفسية وحافزك يلعبان دوراً هاماً في تحديد مدى تعلمك من تلك الأفعال.

وفي حين تشير بعض نظريات التعلم السلوكية إلى أن التعزيز الخارجي هو الذي خلق التعلم، فقد تحقق الأستاذ/ باندورا من أن التعزيز لا يأتي دائماً من مصادر خارجية. فلقد لاحظ أن التعزيز البيئي الخارجي لم يكن العامل الوحيد المؤثر في التعلم والسلوك. وهو وصف التعزيز الداخلي كشكل من المكافأة الداخلية مثل الفخر والشعور والشعور بالإنجاز والسعي لتحقيق الذات. ويساعد هذا التركيز على الأفكار الداخلية والإدراك على وصل نظريات التعلم بالنظريات الترموية المعرفية. وفي حين يضع كثير من المراجع العلمية نظرية التعلم الاجتماعي مع النظريات السلوكية، فإن الأستاذ/ باندورا نفسه يصف مقاربهته

